مجلة اللسانيات تفقد رئيس هيئة تحريرها
وأحد أعضاء هيئة التحرير وكتب تأبينا لهما

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولا يسمح بنشرها ورقياً أو
تداولها تجارياً

اللسانيات العربية

Allisaniyat Al Arabiyah

مجلة علمية محكمة تصدر عن مركز الملك
عبدالله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية
العدد ١١ ذو القعدة ١٤٤١هـ - يوليو ٢٠٢٠ م

مجلة اللسانيات العربية تتوّج في المرتبة الأولى في تخصصي الآداب واللغة العربية ٢٠٢٠م في معامل التأثير والاستشهادات المرجعية للمجلات العلمية العربية أرسيف (ARCIF)

- مُرَكَّب المفردِ المضافِ إلى جمعِه
بين هشاشةِ المقاربةِ المَجمَعِيَّةِ وقوةِ التفسير الإدراكي

- دور المعنى الدلالي- التداولي في تأويل الخطاب النحوي

- حروف المعاني من منظار عرفانيّ:
نظريّة لانغاكر أنموذجا

- فلسفة الذهن من مقاربة أفلاطون إلى الثورة الإدراكية

- الفعل «وجب» تركيبًا ودلالة في المدوّنات الحاسوبيّة العامّة والمختصّة

- المعالجة الآلية للتطور الدلالي وفق لغويات المدونة المحوسبة
دراسة دلالية حاسوبية

- في المناويل المعجميّة

- تسكين اللغة: (إشكالات المنطوق والمكتوب في اللسانيات الحديثة)

- مشكلات المصطلح والترجمة في معجم «اللغويات الاجتماعية»

معامل التأثير والاستشهادات المرجعية للمجلات العلمية العربية أرسيف ARCIF رقم (٠,٢٣٥٣)

مُرَكَّب المفردِ المضافِ إلى جمعِه بين هشاشةِ المقاربةِ المَجمَعِيَّةِ وقوةِ التفسير الإدراكي

أ.د. محي الدين محسب[١]

ملخص المقالة١:

في هذه المقالة محاولة لبيان أوجه القصور التي تبدَّت في مقاربة مجمع اللغة العربية بالقاهرة لظاهرة المركب اللغوي المتكون من (المفرد المضاف إلى جمعه) في العربية. ومن ثمة تتجه المقالة إلى تقديم تفسير لهذا المركب مبنيٍّ على معطيات اللسانيات الإدراكية، وبخاصة معطيات نظرية التراتب الطرازي؛ ليكون في ذلك ما نأمل منه أن يكون مساهمة في مبادرة الأخذ بمنجزات النظر اللساني الحديث والمعاصر من أجل إحداث تطوير حقيقي في الفكر اللساني لدى هذه المؤسسة اللغوية.

الكلمات المفاتيح: مجمع اللغة العربية– قرار اللجنة المجمعية – التفضيل– المركب الإضافي – المبالغة– نفي المثيل–الإدراك– التراتب الطرازي

مدخل:

لم يعد أمر اللغة العربية شأنًا يَعني العربَ بدواعي الحب والهيام في جمالها وأسرارها؛ فتلك أسبابٌ تدخل تحت بند (الميول اللغوية العربية) التي أصابها كثيرٌ من التشوهات والتجريف في العقود الأخيرة بدرجة جعلتها على الأقل غيرَ ناجعة للتعويل عليها في حمل عبء النهوض بالمسئولية اللغوية؛ وأصبح اللازمُ لتحميل

١- أستاذ العلوم اللغوية – مصر

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

أعباء شأن العربية أن يكون ثمة تخطيطٌ لغوي وسياسة لغوية معدَّان إعدادًا علميًّا دقيقًا، ومؤهلان في الاستجابة للأغراض القومية والحضارية والاستثمارية المعرفية التي ترتبط ارتباطًا وثيقًا بشأن العربية في ظرفها الراهن وأمرها المستقبلي.

ولا شك أن المجامع اللغوية تعد إحدى الوسائل المهمة بالنسبة إلى مؤسسات التخطيط اللغوي. وهذه هي العين التي ننظر بها إلى مؤسسة مجمع اللغة العربية المصري. ومن ثم فكلُّ ما يصدر عن هذا المجمع لا بد أن يكون صادرًا عن وعيٍ عميق برسالة أهدافه، وبكيفيات تجسيدها وإنجازها. وهذا النظر التقديري هو ما يؤسس لهذه المداخلة العلمية التي رأيتُ جدوى بسطِها إزاء مسألة لغوية صدر بشأنها قرار من المجمع ومؤتمره في دورته رقم ٨٣ لسنة ٢٠١٦م. فعلى الرغم من أن الأمر يبدو قضيةً ليست بذات خطرٍ أو أهمية كبيرة تستدعي كل هذا الحشد في هذه المداخلة، فإنني أرى أن ما وراء تصرف المجمع في تلك المسألة اللغوية من دلالات هو الأشد خطرًا، وقد يتلقفها من يجعل منها مؤشرًا لما لا نرغب جميعًا أن تُؤطَّرَ به صورةُ الممارسة العلمية اللغوية لدى هذا المجمع العريق، كما أن الخشية كل الخشية أن يكون لتلك المسألة أخواتٌ شبيهاتٌ في كيفية مسار اتخاذ القرار المجمعي اللغوي.

على أن ما دفع إلى هذه المداخلة ليس هو فقط الرغبة في محاججة مقاربة المجمع، من أجل تفنيدها، وإنما هو استثمار هذه المقاربة بوصفها سانحةً للكشف عن إمكانات ما تقدمه الإدراكيات من كفاية تفسيرية في معالجة القضايا التركيبية. فإن استطاعت هذه المقاربة أن تقدم تفسيرًا ذا نجاعةٍ ظاهرة فإن ذلك يمكّن من طرح السؤال الكبير: إلى متى تظل ثمة إمكانة، أو مساحة، لقبول مجمع اللغة العربية معالجاتٍ تتناول قضايا اللغة العربية دون أن تكون هذه المعالجاتُ آخذةً بأسباب الأنظار اللسانية الحديثة؟

ولندخل في الموضوع..

في يوم ٨ مايو؛ من عامنا الحالي (٢٠٢٠م)، اطَّلعتُ على تدوينة منشورة على صفحة الفيسبوك للأخ الفاضل الأستاذ الدكتور محمد الوزير عضو المجمع، ويعود نشرُها إلى ٨ مايو ٢٠١٧م؛ أي إلى الفترة التي كان فيها الدكتور الوزير (خبيرًا) بالمجمع، وسبقت الوضعَ الحالي لتحوُّلِه إلى أن يكون (عضوًا) بالمجمع. ونص

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

التدوينة يقول:

"قرر مجمعُ مؤتمر اللغة العربية أمسِ قاعدةً نحويةً جديدةً اكتشفها الدكتور محمد رجب الوزير الخبيرُ بالمجمع وهي إضافةُ الاسم المفرد إلى جمعِهِ للدلالة على معنى التفضيلِ والتفردِ أو مطلقِ الزيادة مثل: سر الأسرار، وملك الملوك وبدر البدور وشيخ مشايخ (الطرق الصوفية) وكأس الكؤوس (الأوروبية)، ونجم النجوم، وأسد ألأسود، وفتح الفتوح، وقاضي القضاة».

وبمجرد اطلاعي على هذه التدوينة كتبتُ مباشرةً تعليقًا وجيزًا عليها فقلتُ:

"أظن أن هذا النمط من التراكيب قد أشار إليه، وقال إنه للمبالغة، صاحبُ (تاج العروس) في مادة (أ ح د). سأحاول توثيق ذلك."

ورَدَّ الدكتور محمد الوزير بقوله:

"الإضافة هنا [يقصد في تركيب: ملك الملوك] بمعنى الملك الأعلى وهو الله، وفتح الفتوح بمعنى أعظم فتح، وبدر البدور أي أجمل امرأة... وغير ذلك، ففيها معنى التفضيل والتفرد أو مطلق الزيادة وليس مجرد المبالغة".

وبعد سويعات من هذا الحوار وافاني الأخُ الفاضلُ الأستاذ الدكتور محمد الوزير بمستندِ مقترحِه الذي قدمه للمجمع، وفي ذيل المقترح قرارُ اللجنة المجمعية؛ (لجنة أصولِ اللغة والألفاظ والأساليب). وجاء نص قرار اللجنة على النحو الآتي:

"ترى اللجنة أنه لا مانع من إضافة الاسم المفرد إلى جمعه للدلالة على معنى التفضيل والتفرد أو مطلق الزيادة؛ توسعةً في اللغة ولشيوعه".

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

وبطبيعة الحال فقد رجعتُ إلى قراءة الصفحات الأربع التي حملت مقترحَ الأستاذ الفاضل الذي انبنى عليه قرار اللجنة، أو بالأحرى توصيتُها التي اعتمدها مؤتمر المجمع. وأول ما استلفت نظري هو أنني لم أجد ذكرًا أو إشارة لرأي يذهب إلى (المنع) أو (التضييق) الذي يتطلب (توسعة) تمكِّن من استعمال هذا المركب؛ وذلك لكي يقال لهذا المانِع أو المُضَيِّق إن المجمع يرى أنه (لا مانع)! ثم: كيف يتسق أن تكون إجازة استعمال المركب (توسعةً) في اللغة وأن يوصف المُرَكَّب نفسه بـ (الشيوع) في اللغة؟! فإذا قيل هنا إن (الشيوع) وصف لحال الاستعمال الحديث نقول إننا سنثبت أن المركَّب مستعمل بشيوع منذ القدم. كذلك استلفت نظري أنني لم أجد في المقترح المقدَّم تمثيلاً لأيٍّ من هذه المفاهيم الثلاثة؛ بمعنى أن المقترح خلا من التفريق بين الحالة التي يكون فيها هذا المركب يدل على (التفصيل) والحالة التي يدل فيها على (التفرد)، والحالة التي يدل فيها على (مطلق الجمع). ثم استلفت نظري ثالثًا ذلك الغموض البادي في وضع كلٍ من (التفضيل والتفرد) و(مطلق الجمع) جهتين دلاليتين مفصولتين بـ (أو)؛ بما يعني أن الدلالتين الأوليين تقعان معًا، أو تتلازمان، والدلالة الثانية تقع وحدها. ويزداد هذا الغموض غموضًا حين نعرف أن المصطلح (مطلق الجمع) له استخدام شهير في النحو العربي؛ وهو تلك الوظيفة الدلالية التي تقوم بها (واو العطف)؛ إذ لا تدل على الترتيب بين المعطوف والمعطوف عليه وإنما على مطلق الجمع بينهما. فهل المقصود في حالة إضافة المفرد إلى جمعه أنه يكون أحيانًا بهدف (مطلق الجمع) بين المضاف والمضاف إليه؛ فلا قصدية لـ(تفضيل) الأول على الثاني؟! كل ذلك في الحقيقة، وفي غياب التمثيل الشارح، يظل تساؤلات معلقة.

ولما كان أمر المجمع يهمنا جميعًا بقدرٍ يصل إلى الغيرة عليه وعلى تاريخه الناصع، وعلى القامات الراسخة التي تعمل فيه وتقوم بخدمات جليلة للغة العربية،

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

ولما كان أخي الدكتور محمد الوزير من الأساتذة الذين يُكَنُّ لهم كل الاحترام والتقدير، وأرى أن لنا في خلقه العلمي مساحةً واسعة جدًا لإثارة حوار علمي لا يستهدف، ولا ينشد، إلا الوصول إلى حقائق المعرفة والعلم، فقد رأيتُ أن أدوَّن هنا على هذا المقترح، وعلى القرار الآخذ به، جملةً من الملحوظات قبل الانتقال إلى محاولة تقديم مقاربة إدراكية تفسيرية لهذا المركب اللغوي. فإن أدَّت هذه المقاربة إلى نجاعة تفسيرية فإن ذلك يكون مسوغًا لتأكيد ضرورة أن يأخذ القرار المجمعي بما تقدمه التطورات المستجدة في اللسانيات من أجل فهم ظواهر العربية وإبداء الرأي فيها.

وعلى ضوء كل ما سبق فإن هيكل هذه المداخلة يتكون من ثلاثة أجزاء هي:

أولاً: رصيد الظاهرة في الاستعمال.

ثانيًا: الظاهرة في معالجة علماء العربية.

ثالثًا: التفسير الإداركي لإضافة المفرد إلى جمعه.

أولاً: رصيد الظاهرة في الاستعمال:

في مستهل مقترح الدكتور الوزير نجد العبارة الآتية:

"شاع حديثًا إضافةُ الاسم المفرد إلى جمعه للدلالة على معنى التفضيل والتفرد أو مطلق الزيادة".

وما يُفهَم من هذه العبارة هو أن هذه ظاهرة طارئٌ شيوعُها في استعمال العربية حديثًا. وهذا الشيوع إما أن يكون معناه أننا إزاء مُركَّب لغوي جديد لم يُستعمَل من قبل، أو أننا إزاء مُركَّب قديم نادر الاستعمال أو قليل الاستعمال، ولكنه فشا وانتشر في الاستعمال الحديث. والسؤال هنا هو: هل هي فعلًا ظاهرة حديثة على أيّ وجهٍ من الوجهين؟. والجواب قطعًا: لا. وبطبيعة الحال فإن هذا الجواب الحاسم يتطلب سَوق الدليل عليه. ولأن القالب المجرد (مضاف مفرد + مضاف إليه هو جمع لهذا المفرد) يمكن أن يملأه ما لا نهاية له من الأمثلة فسأكتفي بنتيجة استقراءٍ أوليٍّ خرجنا

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

منه بهذه الأمثلة الآتية هي قليلٌ من كثيرٍ في رصيد هذه الظاهرة. ولقد كان ثمة حرصٌ على أن تكون الأمثلة المذكورة منتسبةً إلى عصور مختلفة من تاريخ اللغة العربية، وإلى مجالات مختلفة من أوعية استعمالها.

١- في الشعر[٢]:

- قال الشاعر الجاهليّ مهلهل بن ربيعة (٩٤ ق.هـ)[٣]:

أَعَينَيَّ جودا بِالدُموعِ السَّوَافِحِ عَلى فارِسِ الفُرسانِ في كُلِّ صافِحِ

- وقال أبو زبيد الطائي (شاعر مخضرم بين الجاهلية والإسلام، توفي ٦٢ هـ)[٤]:

لَيثُ الليوثِ في الصِدامِ مِصدَمِ وَكَهْمَسِ اللَيلِ مِصَكٍّ مِلدَمِ

قالت حميدة بنت النعمان بن بشير الأنصاري الخزرجي (٨٥ هـ):

لَيثُ الليوثِ علينا باسلٌ شرِسٌ وَفي الحروب هَيوبُ الصَّدرِ جيّاضُ

- وقال جرير (ت. ١١٠ هـ):

مِنّا فَتى الفِتيانِ وَالجودِ مَعقِلُ وَمِنّا الَّذي لاقى بِدِجلَةَ مَعقِلا

- وقال ابن مطير الأسدي (توفي ١٦٩ هـ):

وَلَيْسَ فَتَى الفِتْيانِ مَنْ راحَ واغْتَدَى لِشُرْبِ صَبُوحٍ أَوْ لِشُرْبِ غَبوقِ

وَلَكنْ فَتَى الفِتْيانِ مَنْ رَاحَ واغْتَدَى لضَرِّ عَدُوٍّ أَوْ لِنَفْعِ صَدِيقِ

- وقال أبو نواس (ت. ١٩٨ هـ):

وَلَدَينا المُهَذَّبُ ابْنُ رَبَابٍ عِصمَةُ المُعتَفينَ بَحرُ البُحورِ

- وقال أبو تمام (ت. ٢٣١ هـ):

وَيا أَسَدَ المَنونِ فَرَستَ مِنهُ غَداةَ فَرَستَهُ أَسَدَ الأُسودِ

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

كما قال أبو تمام أيضًا في بائيته الشهيرة عن فتح عمورية:

فَتْحُ الفُتوحِ تَعَالَى أَنْ يُحيطَ بِهِ نَظْمٌ مِن الشعْرِ أَوْ نَثْرٌ مِنَ الخُطَبِ

- وقال المتنبي (ت. ٣٥٤ هـ)[٥]:

فَيا بَحرَ البُحورِ وَلا أُوَرّي وَيا مَلِكَ المُلوكِ وَلا أُحاشِي

ويروى: فيا بدرَ البدور...

- ويقول أبو الحسن الششتري (ت ٦٦٨ هـ):

يا روحَ الأرواحْ أنت مرادي ومالي

ويتكرر المُركَّب الإضافي (ملك الملوك) عشرات المرات عند شعراء (الموسوعة الشعرية)، وحتى المُركَّب الذي نظنه مُركَّبًا مستحدثًا؛ وهو (نجم النجوم)، نجده مستعملاً منذ القرن الثالث الهجري؛ عند ابن الرومي (ت. ٢٨٣ هـ):

أنت نجمُ النجومِ والدهرُ ليلٌ مَا لِنَجْمٍ سواكَ فيه ثُقوبُ

وعند ابن الرومي يتكرر تركيب (ليث الليوث) مرات عدة. ويستخدم التركيب (رب الأرباب):

وكان أولى بأن يهذّب ما يخلق ربُّ الأرباب لا البشرُ

وهذا المركب نفسه يَرِد عند أبي العتاهية، وأبي حامد الغزالي. وعلى غراره يُستَخدَم تركيب (إله الآلهة) كما في (نفح الطيب) للمقري.

وإذا كان صاحب المقترح يسوق مركب (بدر البدور) على أنه مما «شاع حديثًا»، وأنه يعني «أجمل امرأة»، فإن مراجعة التراث تفيد أن المركب قديم؛ حيث نجده عند أكثر من شاعر، وبدلالة ليس فيها معنى التفضيل لأجمل امرأة، وإنما فيها الدلالة على حسن الممدوح، وبخاصة الرسول (ص). وقد مرّ الإشارة إلى روايةٍ لبيتٍ للمتنبي تتضمن مركب (بدر البدور) مجاوِرًا لمركب (ملك الملوك). ومن الشائق أن نجد مجاورة مماثلة عند ابن الرومي[٦] في قوله:

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

وكان أهلاً لما يُولاهُ من حسنٍ بدرُ البدُور وصنْديدُ الصَّناديدِ

وهذه المجاورة نفسها بين تركيبين إضافيين من النمط نفسه الذي نحن صدده نجدها في قول ابن رشيق القيرواني (ت ٤٥٦ هـ):

فتحُ الفتوحِ بلا مَيْنٍ وصاحبُه مَلْكُ الملوكِ ومَوْلاها بِلا كَذِبِ

ومن الشائق أن ابن رشيق في هذه القصيدة نفسها يستخدم المركب الإضافي نفسه مكوَّنًا من اسمين مؤنثين:

ما دارَ قطُّ عليها دورُ دائرةٍ كلا وَلَا وَاصَلَتْها نوبةُ النُّوبِ

ويجاور ابن الأبار (ت ٦٥٨ هـ) أيضًا بين تركيبين في قوله:

بُشْرَاكَ بُشْرَاكَ يا مَلْكُ المُلُوكِ بِهِ فتْحُ الفُتُوحِ وَبُشْرَانا

وعند مهيار الديلمي (ت. ٤٢٨ هـ) نجد مُركَّب (أمير الأمراء):

يمّمْ أميرَ الأمراء جانبًا بجانبِ الأهواز تلك الحِلَلا

وسيلفت النظرَ البحتريُّ (ت ٢٨٤ هـ) عندما يأتي بمُركَّب من هذا النوع بصورتين مختلفتين في البيت نفسه: صورة المضاف إليه النكرة، وصورة المضاف إليه المعرفة:

إن يَكُن في الأَنامِ سَعدُ سُعودٍ بَشَرِيًّا فَأَنتَ سَعدُ السُّعودِ

وهذا المركب نفسه نجده قبل البحتري عند الشاعر الكميت (ت ١٢٦ هـ) حيث يقول:

ولكنَّ نَجمَك سعدُ السُّعو دِ طبَّقتَ أرضيَ غيثًا دَرورا

والحقيقة هي أن مركب (سعد السعود) له حضور أسبق بكثيرٍ من البحتري والكميت معًا؛ فهو مصطلح أطلقته العرب في أدبياتها الفلكية على أحد منازل الكواكب، ويمكن مثلًا مراجعة كتاب (الأنوار) لابن قتيبة حيث يقول «وهي ثلاثة كواكب أحدها نير والآخران دونه، وقيل له سعد السعود لتَيمُّنهم به»[٧]. ويورد ابن قتيبة أن ساجِعَ العرب يقول «إذا طلع سعد السعود، نضر العود...»[٨].

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

والمركب المقابل لمركب (سعد السعود) هو (نحس النحوس). فهما إذًا قائمان بوصفهما مصطلحان في المجال الدلالي للفلك، وقائمان لتشبيه بطوالع التفاؤل والتشاؤم. وبهذه الدلالة الأخيرة نتذكر قول حافظ إبراهيم (ت ١٩٣٢ م) وشكواه من الطالع النحس الذي اقترن بفقدِ عزيز:

ياطالعًا للشرق لجَّ به نحسُ النحوسِ فَقَرَّ في زُحَلِ

وعلى النمط نفسه الوارد في بيت البحتري]مضاف + مضاف إليه نكرة[نجد محيي الدين بن عربي (ت٦٤٠ هـ) يقول:

هو الوجودُ ولكنْ ما حكَمْت بهِ فإنه عَينُ أعيانٍ بَدَتْ فيهِ

وإذ نصل إلى يوسف النبهاني (١٩٣٢ م) نجد هذا النمط مكررًا مرتين في البيت الواحد:

فَهيَ لِلمُؤمِنينَ سعدُ سعُودٍ وَعَلى الكافِرينَ نَحسُ نُحوسِ

ويورد الدكتور محمد الوزير مُركَّب)سعيد السعداء(على أنه تعبير مستحدث. وهذا المركَّب يمكن أن نعود به على الأقل إلى القرن السادس الهجري حيث نجده وقد تكرر مرارًا في (التذكرة الحمدونية) لابن حمدون (أبو المعالي، بهاء الدين البغدادي (٤٩٥ هـ – ٥٦٢ هـ)[٩]. ومما يذكر هنا أن صلاح الدين الأيوبي (ت ٥٨٩ هـ) أنشأ أول خانقاه بالقاهرة عُرِفت باسم (خانقاه سعيد السعداء) «وقفها على الصوفية في سنة تسع وتسعين وخمسمائة (؟) وكان شيخها يلقب بشيخ الشيوخ... إلى أن كانت الحوادث عام ٨٠٦ هـ وتلاشت الرتب أو فقدت شيئًا من مدلولاتها فتلقب شيخ كل خانقاه بشيخ الشيوخ»[١٠].

وبطبيعة الحال فإننا عندما نصل إلى العصر الحديث نجد أمثلة مماثلة، وقد أورد الدكتور الوزير في مستهل مقترحه جملة منها بلغت ثلاثة عشر تركيبًا هي (سرّ الأسرار – قدس الأقداس – جنة الجنات – ملك الملوك – بدر البدور – أميرة الأميرات – جميلة الجميلات – شمس الشموس – شيخ مشايخ (الطرق الصوفية) كأس الكؤوس– أستاذ الأساتذة – نجم النجوم – سعيد السعداء(. وكما ذكرنا فإن بعض هذه المركبات يعود إلى استعمالات أقدم بكثير من استعمالها (حديثًا) بحسب

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

تعبير الدكتور الوزير. فهو يورد مثلًا المُركَّب (شمس الشموس) ويقول إن معناه (أشهر امرأة(، ولا يورد هنا دليلًا نصيًّا، ويبدو أن هذا المعنى جاء من شيوعه نعتًا لمطربة لبنانية شهيرة! غير أن الحقيقة هي أن هذا المُركَّب مستخدمٌ بكثرة – مثله مثل مركب (قطب الأقطاب)– في الألقاب الصوفية[١١]؛ فنجده مثلًا وقد أطلِق على أحد أقطاب القرن السابع الهجري: (أبو الغيث سعيد بن سليمان بن جميل: «شيخ مشايخ اليمن في عصره يلقب بشمس الشموس»[١٢]. كذلك نجد أحد أعيان القرن العاشر الهجري «الشيخ الكبير والعلم الشهير القطب الرباني شمس الشموس الشيخ أبو بكر بن عبد الله العيدروس»[١٣]. على أنه من المهم أن يلاحظ أيضًا أن هذا المُركّب نفسه يخرج من أن يكون وصفًا بمعنى (أشهر امرأة) ليستخدم في التصوف تعبيرًا عن الحقيقة المحمدية؛ وذلك كما في قول الشاعر عمر بن محمد اليافي (ت ١٨١٨ م):

أشرقتْ في سمائيَ شمسُ الشموس فاضمحلّت بها ظلماتُ النفوس

وهذا التعبير عن الحقيقة المحمدية نجده في تعبيرين آخرين استخدمهما البزني (ت ٦٢٢ هـ) وهما: (نورِ أنوارِ المعارف) و (سر أسرار العوارف)[١٤]. ومُركَّب (شمس الشموس) نجده في العصر الحديث مجاورًا لمركب (بدر البدور) وقد مُدِح بهما النبي (ص)؛ كما فعل الشاعر الفلسطيني يوسف النبهاني (ت ١٩٣٢ م) وهو يتحدث عن (المدينة المنورة):

هِيَ أُمُّ الأَنوارِ قَد حَلَّها المُخـ تارُ بَدرُ البُدورِ شَمسُ الشُموس

وفي السياق الصوفي الرمزي نفسه نجد استعمال المركب (روح الأرواح) مقترنًا مع مركب (سر الأسرار)؛ كما نجد في قول الشاعر عمر الرافعي (ولد ١٨٨١ م):

وَهي روحُ الأَرواح في الكَون طرًّا وَهي سِرُّ الأَسرارِ في الإِجمالِ

وفي المركب (قدس الأقداس) نجد استخدامًا له يعود إلى القرن الثامن عشر الميلادي؛ إذ يقول الشاعر جرمانوس فرحات (ت ١٧٣٢ م):

يا هيكلَ القدسِ روحُ القدسِ حّلَّ به منه ظفرتِ بسرِّ قُدسِ أقداسِ

وبالنسبة إلى المُركَّب (شيخ المشايخ) الذي رأينا إطلاقه في القرن السادس الهجري على مشايخ الصوفية في مصر، نجد المقترِح يقصُره على ذلك فيشير إلى المركب بالصيغة

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

الآتية (شيخ مشايخ الطرق الصوفية). والحق أن هذ المركب لا يقتصر على المجال الصوفي. فالجبرتي مثلاً (ت ١٨٢٥ م) منذ أوائل القرن التاسع عشر استخدم تعبير (شيخ مشايخ الأزهر)[١٥]. وظل هذا المركب في الاستخدام يطلق على بعض شيوخ الأزهر؛ مثل الشيخ أحمد الرفاعي (ت ١٩٠٧)[١٦].كذلك لا يلتفت المقترح إلى أن هذا المركَّب هو صيغة أخرى من المُركَّب (شيخ الشيوخ) المتداول في كتب التراجم العربية، وأن التركيبين كليهما لا يختلفان عن مركب (فقيه الفقهاء) أو مركب (عالم العلماء) وكلاهما وردا مثلاً في كتاب (المنتظم في تاريخ الملوك والأمم)لابن الجوزي (٥٩٧ هـ)[١٧] نَعتَينِ لـ (سعيد بن المسيب) عالِمِ المدينة المنورة وأحدِ الفقهاء السبعة التابعين. كذلك يدخل في هذه المجموعة نفسها مُركَّب (إمام الأئمة) الذي استخدمه الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ/ ١٨٣٤ م) عندما قال:

إمامَ الأئِمّةِ منْ هاشِمٍ وأكْرَمَها في المعالي نِجارا

ومادمنا في سياق الشعر فلنختم بواقعة لها من الشهرة ما كان حريًّا باستلفات النظر إلى هذا المُركَّب الإضافي لو أن العلماء وجدوا فيه أدنى عدول عن النظام النحوي في تركيب الإضافة. وهذه الواقعة تتمثل في ذلك الحوار بين الخليفة عمر بن الخطاب وابن عباس الذي يَروِي فيقول: «قال [يقصد عمر]: يا ابن عباس. ألست تنشدني لشاعر الشعراء؟ قلت: يا أمير المؤمنين: ومن شاعر الشعراء؟ قال: زهير. قلت: لم صيرتَه شاعر الشعراء؟ قال: لأنه لا يعاظل...»[١٨].

والنتيجة التي نرتبها على ذلك كله هي أن هذا المُركَّب اللغوي كان شائعًا قائمًا في كل عصور الاستعمالات الشعرية. ومن ثم ينتفي بهذه الأدلة الشعرية مضمون التعبير (شاع حديثًا) الذي استُهِلَّ به المقترح المقدّم للمجمع. فهل ثمة أدلة من أوعية نصية أخرى. في الحقيقة لدينا وعاءان: عنوانات الكتب، والمصطلحات.

٢- في أسماء الكتب:

إذا تركنا الشعر إلى غيره من مجالات الاستعمال فإن في تسميات الكتب المؤلفة

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

مَعينًا لاستعمال هذا المُركَّب الإضافي. وعلى سبيل المثال يُذكَر أن لأبي بكر الرازي (٢٥٠ هـ) كتابًا عنوانه (سر الأسرار)، وأن لعبد القادر الجيلاني (٥٦١ هـ) كتابًا بالاسم (سر الأسرار ومظهر الأنوار فيما يحتاج إليه الأبرار)، وأن لأحمد بن أبي سعيد الأميتوي الحنفي (١١٣٠ هـ) كتابًا هو (نور الأنوار في شرح المنار)، ولمحمد بن عبد الله القادري كتابًا هو (نور الأنوار وكنز الأبرار في ذكر الصلاة على النبي المختار). فلو كان في كل هذه العنوانات دلالة غير معهودة لكان هذا بلا شك سيمثل مُستَلَفتًا قويًّا لأنظار علماء العربية وبلاغييها ليجدوا في هذه العنوانات محرِّضًا للنظر.

٣- في المصطلحات:

هناك في التراث الصوفي ذلك المصطلح الشهير (حقيقة الحقائق) وعنه يقول ابن عربي: «الحقيقة المعقولة الجامعة ... فسمّه إن شئت حقيقة الحقائق أو الهيولى أو المادة الأولى أو جنس الأجناس»[١٩]. ونلحظ في هذا الاقتباس مُركّب (جنس الأجناس)، وهو من زمرة الاستعمال نفسه. وفي الدرس المنطقي يعرّف (جنس الأجناس)، بأنه «هو الجنس الذي لا يعلوه جنس آخر فوقه»[٢٠]. ويقابل هذا المصطلح مصطلح (نوع الأنواع)[٢١]؛ وهو من نوعية المُركَّب الإضافي الذي نحن صدده. وتعريفه أنه النوع الذي ليس تحته نوع.

وفي مجال المصطلحات القضائية نجد مصطلح (قاضي القضاة) الذي أُطلِق على منصبٍ استُحدِث في الدولة العباسية يوازي تقريبًا منصب (وزير العدل) في حياتنا المعاصرة، وقد شغله أعلام مشهورون مثل عبد الجبار المعتزلي (ت ٤١٥ هـ)، والماوردي (ت ٤٥٠ هـ) الذي أنشأ ديوانًا سُمّيَ بـ (ديوان قاضي القضاة)، وابن خلكان (ت ٦٨١ هـ) صاحب وفيات الأعيان، وغيرهم[٢٢]. والمطلع على هذا الكتاب الأخير -وفيات الأعيان- وعلى غيره من المصادر التراثية، يجد كثيرًا من المصطلحات التي تدل على مناصب ورتبٍ إداريةٍ؛ وذلك مثل (رئيس الرؤساء) و (ناظر النظار)[٢٣]. ولا يبعد عن هذا المجال الدلالي مركب (أمير الأمراء)؛ وهو منصب سياسي وإداري استحدثَه الخليفة الراضي عام ٣٢٤ هـ[٢٤].

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

خلاصة رصد الاستعمال:

قبل أن نحاول استخلاص عدد من نتائج رصدنا لأوعية الاستعمال اللغوي هذه نود أن نشير إلى نوع من الاستعمال مغايرٍ في طبيعته تمامًا لكل ما سبق من أمثلة الظاهرة التي نحن صددها، ولكنه مع ذلك يأخذ صورة توهم بالانضواء تحتها. ففي العبارات الآتية مثلاً:

أ. قمتُ بجمع الجموع من معجم لسان العرب

ب. سَرَّنا الكريمُ ببذل البذول

ج. ورد في كتاب (الفرقان في تدوين القرآن) لابن الخطيب[٢٥]:»نهى عثمانُ عن قراءة القراءاتِ بتاتًا«

د. نَذرُ النذور محكومٌ بالاستطاعة للوفاء به

وهذه النوعية من المركبات الإضافية تحتاج تفسيرًا مغايرًا تمامًا للتفسير الذي تتطلبه الأمثلة التي سقناها من رصيد استعمالات الظاهرة؛ حيث لا يمكن الأخذ بمقولة (المبالغة) أو بمقولة (التفضيل) لتفسير هذه المركبات. ولكي يتضح ذلك فلنعقد مقارنة بين المركب (ليث الليوث) مثلاً ومركب (جمع الجموع) الوارد في (أ). ولتيسير توضيح المقصود سنطلق على مقدّم المركّب مصطلح (رأس)، وعلى العنصر الثاني فيه مصطلح (الذيل). فعلى حين أن العنصر الأول (= الرأس = ليث) في المركب (ليث الليوث) هو فرد من أفراد الثاني (= الذيل = الليوث)، فإن رأس المركب الثاني (= جمع) ليس فردًا من أفراد الذيل (= الجموع). وهذا فرق دلالي مهم. فـ (ليث) في المركب الأول (هوية ذات entity)؛ ومن ثم تخضع لمقولة (العدد)، في حين أن (جمْع) في المركب الثاني هو (عملية process) أو (نشاط activity)؛ ومن ثم تقع إشاريتُه الدلالية على كثيره وقليله. ولذلك يصحُّ أن يُحوَّل المصدرُ الصريح في هذه الأمثلة إلى مصدر مؤول فنقول مثلاً:

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

(أ-) كلَّف الأستاذُ طالبَه أن يجمعَ الجموعَ من لسان العرب

(ب-) سرّنا أن يبذل البذولَ كلُّ كريمٍ

(ج-) نهى عثمانُ عن أن يقرأ القراءاتِ أحدٌ

(د-) أن تنذر النذور محكومٌ بالاستطاعة للوفاء بها

ومن الواضح أن الظاهرة التي نحن صددها ليست من باب هذا النمط من الإضافات الذي أطلق عليه اللغويون العرب (باب إضافة المصدر إلى مفعوله). فما نحن صدده هو إضافة مفردٍ من الجهة الصرفية العددية إلى جمعه الصرفي العددي.

وعلى أية حال فإن ما يتضح لنا من كل الاستعمالات التي أوردناها أننا إزاء ظاهرة قارّة فاشية في الاستعمال اللغوي في أوعية نصية مختلفة في كل عصور اللغة العربية؛ ومن ثم فهي ليست ظاهرة مستجدة أو طارئة تتطلب موقفًا معاصرًا منها يقضي بالجواز أو المنع. والأمر الذي يستلفت إليه النظر أن صاحب المقترح الفاضل بعد أن بدأ بالإشارة إلى شيوعٍ حديثٍ في استعمال هذا المُركَّب يقول:

«ويستأنس مؤلفُ هذا الكتاب بورود هذا الاستعمال في نصوص عربية قديمة منها...»

وبصرف النظر عن اللبس القائم في تعبير (مؤلف هذا الكتاب) - إذ لا ندري إلى أي كتابٍ يحيل؟!- فإن فكرة (الاستئناس) هنا هي الشديدة اللبس والتعمية. فإيراد ستة أمثلة من نصوص عربية قديمة يوحي - تحت تأثير مقولة (الاستئناس) - بأنها ظاهرة مغمورة الاستعمال؛ فتكون هذه الأمثلة شيئًا يتِدُ به المقترح مقترحَه ليقويَّ ما زعم أنه «شاع حديثًا» في الاستعمال، وكأنه يواجه أمثلةً أخرى تناقِض هذا الاستعمال، أو أنه إزاء رأيٍ معترِضٍ على هذا الاستعمال. أمَا وقد رأينا فُشوَّ استعمالِ الظاهرة منذ القِدَم، ولم نجد ثمة من يعترض على هذا الاستعمال، فالأمثلة الستة التي أوردها الأستاذ الفاضل تدخل ضمن استعمالٍ لا مُعارِضَ له، وليس ثمة ما ينقضُه.

هذا من جهة الاستعمال، فماذا عن جهة التناول المعجمي أو الدلالي أو النحوي أو البلاغي لهذا المُركَّب من قِبَل علماء العربية؟

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

يقول الدكتور الوزير في مقترحه:

«هذا ولم يلتفت علماء العربية قديمًا وحديثًا إلى إضافة المفرد إلى جمعه بهذه الدلالة».

وهو يقصد بتعبير (بهذه الدلالة) أن هذا المركب يدل -كما يقول- على «التفضيل والتفرد أو مطلق الزيادة». وهنا ينهض سؤال: هل صحيح أن علماء العربية لم يلتفتوا إلى إضافة المفرد إلى جمعه؟ وإذا ثبت التفاتُهم فهل كان التفاتًا إلى الظاهرة بهذه الدلالة، أم أنه كان التفاتًا إليها بدلالة أخرى؟ وإن كانوا قد قالوا بدلالة أخرى فلِم لَم يذكر ذلك في عرض المقترح حتى يوازن القارئ بين الدلالة التي قالوا بها والدلالة الجديدة المقترحة؟ وفي الجواب عن ذلك كله نمضي بثلاث خطوات: الأولى إثبات أنهم التفتوا. والثانية الكشف عن الدلالة التي قالوا إن استعمال إضافة المفرد إلى جمعه يقوم بها. والثالثة المقارنة بين الدلالة التي أقروها، والدلالة الجديدة التي توصّل المقترِحُ إليها وأقرّه المجمعُ عليها.

ثانيًا: الظاهرة في معالجة علماء العربية:

لن أتوقف كثيرًا عند معالجة هذه الظاهرة في أدبيات العصر الحديث؛ فهي فيما يبدو لي بالفعل ضئيلة الحضور. ولا أستثني من ذلك سوى وقفة ابن عاشور (ت ١٩٧٣ م) في ردّه على تفسير الزمخشري القائل بأن (إحدى الأمم) في قوله تعالى « وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ» تعني (أفضل الأمم). ففي ذلك يقول ابن عاشور إن تفسير الزمخشري هذا «بَناه على التنظير بما ليس له تنظير، وهو قولهم: إحدى الإحَد، ولا يتم التنظير؛ لأن قولهم (إحدى الإحد) جرى مجرى المثل في استعظام الأمر في الشرّ أو الخير. وقرينة إرادة الاستعظام إضافةُ «إحدى» إلى اسم لفظها فلا يقتضي أنه معنى يُراد في حالة تجرد (إحدى) عن الإضافة [إلى اسم من لفظها]»[٢٦]. وما نخرج به من هذه اللفتة هو أن مركب (إحدى الإحد) يفيد «استعظام الأمر في الخير أو الشر»، وما جعله يقوم بهذه الدلالة هو إضافة المفرد إلى اسم من لفظه. فكأن ابن عاشور يريد أن يقول إن إضافة اللفظ إلى اسم من لفظه تفيد دلالة (الاستعظام). وهذا مفهوم تفسيري إدراكي يبين على هذا النمط الإضافي.

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

وكأننا من ثمّ أمام التفاتة تنطوي على تفسيرٍ لنوع من الإدراك الجمعي منعكسٍ في طريقة تعبير العربي باللغة عن العالم. ولعل مما يعزز من قيمة التفاتة ابن عاشور أن ثمة أمرًا له حضور واضح في العربية؛ وهو أن العربي حين يريد أن يعبر عن قوة أمرٍ ما، أو شدة أثر أمرٍ ما، فإنه يلجأ إلى تكريرٍ جناسيٍّ للَّفظ الدالّ على هذا الأمر. وفي هذا يمكن أن نشير إلى أن السيوطي مثلاً يعقد بابًا تحت عنوان «ذكر الألفاظ التي جيء بها توكيدًا مشتقة من اسم المؤكد»[٢٧] ومن ذلك: الجاهلية الجهلاء، ووتد واتد، ووبل وابل...إلخ. وفي هذا السياق يورد بعض المركبات الإضافية التي تنتمي إلى نمطنا موضع الدراسة؛ مثل: صِلُّ أصلال، وهِترُ أهتار...إلخ.

والسؤال هنا: هل كانت تلك اللفتة من ابن عاشور مغايرةً للمقاربة التراثية لهذا المركب؟ هذا مانتوجه لبيانه الآن.

إذا ذهبنا إلى القواميس[٢٨] العربية فإننا نجد في (لسان العرب) تحت المدخل (أ ح د): «إحدى الإحد: الأمر المنكر الكبير؛ قال: (بعكاظٍ فعلوا إحدَى الإحَد)»[٢٩].

وتحت المدخل نفسه في (القاموس المحيط) للفيروز آبادي: «ويقال للأمر المتفاقم: (إحدى الإحد)، و(فلان أَحَدُ الأَحَدِين)، و(واحدُ الأَحَدِين)، و(واحدُ الآحاد)، و(إحدى الإحَد)؛ أي: لا مثيل له، وهو أبلغ المدح. و(أتى بإحدى الإحد) أي: بالأمر المنكر العظيم[٣٠]. وهذا القول الوجيز يجد تحت المدخل نفسه (أ ح د) عرضًا موسّعًا عند الزَّبيدي في (تاج العروس)[٣١]:»(الإحَد) جمع (إحدى)... و(فلانٌ أحدُ الأَحَدِينَ) محركة فيهما، و(واحد الأَحَدِين) هكذا في النسخ، وفي نسخة شيخنا (واحد الواحِدِين)، وفي التكملة (واحد الإِحَدِين) بكسر ففتح، وهما جمع أحد وواحد... وسئل سفيان الثوري عن سفيان بن عيينة قال: ذاك أحدٍ الأَحَدِين، قال أبو الهيثم: هذا أبلغ المدح... و(واحد الآحاد) و (إحدى الإحَد) هو كالسابق... قال رجل من غطفان:

إنكم لن تنتهوا عن الحسدْ حتى يُدَلّيْكُمْ إلى إحدى الإِحَدْ

... (أي لا مثل له. وهو أبلغ المدح) لأنه جعله داهية في الدواهي ومنفردًا في المنفردين؛ ففضَّله على ذوي الفضائل لا على المطلق ... قال الدماميني في شرح التسهيل: الذي ثبت استعمالُه في المدح (أحد وإحدى) مضافَين إلى جمعٍ من لفظهما،

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

كـ (إحَد وأحَدِين)، أو إلى وصف، كـ (أحد العلماء)، ولم يُسمع في أسماء الأجناس، انتهى. قال ابن الأعرابي: قولهم: (ذاك أحَدُ الأحَدِين) أبلغ المدح. ويقال: (فلان واحد الأحَدِين)، و(واحد الآحاد)، وقولهم (هذا إحدى الآحاد)، قالوا: التأنيث للمبالغة بمعنى الداهية. كذا في مجمع الأمثال. وفي المحكم: وقوله

حتى استثاروا بيَ إحدى الإحَدِ

ليثًا هزبرًا ذا سلاحٍ معتدي

فسره ابن الأعرابي بأنه واحد لا مثل له... تقول: (أتى بإحدى الإحَد)؛ أي بالأمر المنكر العظيم، يقال ذلك عند تعظيم الأمر وتهويله. ويقال: (فلان إحدى الإحد)؛ أي واحد لا نظير له. قاله ابن الأعرابي... فكأنه قيل: هو داهية الدواهي... وقد يقال لما يُستعظم مما لا نظير له: هو إحدى الأحَدِين/ وإحدى الإحَد». والحديث هنا واضح عن دلالة التفرد.

وقد نص ابن مالك (ت ٦٧٢ هـ) في التسهيل على أنه «قد يقال لما يُستعظَم مما لا نظير له هو أحد الأحَدِين، وإحدى الإحَد»[٣٢]. ويصعب ألا نقول إن ابن مالك غضّ الطرف عن وجود هذا المركب في هذا البيت الذي هو للفرزدق، والذي يورده ابن مالك نفسه في التسهيل أيضًا؛ وهو:

بالْبَاعِثِ الْوَارِثِ الأَمْوِاتِ قَدْ ضَمِنَتْ إِيَّاهُمُ الأرضُ فِي دهر الدَّهَارير[٣٣]

ويهمنا من هذا البيت الأخير أن ابن منظور أورد في سياق تعليقه عليه قوله: «و(دهورٌ دهاريرٌ) مختلفة على المبالغة» ثم أورد ملحوظة للأزهري هي: «يقال ذلك في (دهر الدهاريرِ)»[٣٤]؛ أي أن هذا المركب الإضافي (دهرُ الدهاريرِ) للمبالغة أيضًا.

وفي (المحيط في اللغة) للصاحب بن عباد (ت ٣٨٥ هـ) – وبالمناسبة كان يُطلَق عليه لقب (كافي الكفاة) وهو مُركَّب إضافي من نمط ما نتحدث فيه! – نجد «(ونزل به إحدى الإحَد) أي إحدى الدواهي»[٣٥]. وإذا عدنا إلى ابن منظور ثانية فإننا نجد تحت مدخل (أ ب د): «الأبد: الدهر، والجمع آباد وأبود»، ثم يورد قولهم «ولا أَفعل ذلك أَبد الأَبيد وأَبَدَ الآباد وأَبَدَ الدَّهر».

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

والسؤال هنا: ما الخلاصة التي نخرج بها من كل هذا الشرح القاموسي؟ والجواب نصوغه على النحو الآتي:

ثمة اهتمام واضح بالمركب الإضافي (أحَد الأحَدين) أو (إحدى الإحَد). ومن الشائق أن هذا المركب (أحد الأحدين) يصلح أن يكون قالبًا مجردًا لهذا النمط من المركبات الإضافية. ولكن على الرغم من هذا الاشتراك في الصورة المركبية لكل ما أوردناه من أمثلة فإن ثمة ضرورة دلالية وتداولية للتفريق بين هذه المركبات التي لا يمكن أن تؤخذ جميعًا على تفسير وظيفي واحد. وسنأتي لبيان ذلك في قادم هذا البحث. وليبق تركيزنا هنا على توضيح التفسير التراثي وما وقف عنده علماء التراث من أنماط هذا المركبات الإضافية.

القانون العام الذي نجده واضحًا بجلاء عند النحاة هو أن الإضافة لا تتطلب إلا وجود علاقةٍ ما بين (المضاف) و (المضاف إليه) حيث «يضاف الشيء لأدنى ملابسة»[٣٦]، ولأن الملابسات لها وجوه كثيرة، فإن الوجه الذي ركز عليه الشراح القاموسيون هو وجه (المبالغة)؛ أي إرادة المنشئ لهذا النمط المركبيّ الإضافيّ أن يبيّن أمرين معًا: الاشتراك (في المجموعة) والامتياز (عن أعضاء المجموعة)؛ فالتركيز من ثمَّ هو على وجه الفائض الدلالي في الخاصية أو الصفة التي تزيد عند عنصر على بقية العناصر المشترِكة في الصفة أو الخاصية. وهذا التحليل يوصلنا إلى إدراك القيمة التفسيرية التي تكمن في عبارة تاج العروس ومؤداها أن مُطلِق هذا المركب على شخصٍ ما أو أمرٍ ما، إنما يريد «تفضيلَه على أصحاب صفته لا على المطلق». لقد أدرك أصحاب القواميس ما في هذا المركب من دلالة على أنه يطلَق عندما يكون أحد عناصر زمرة معينة فائقًا عليها في الصفة الجامعة لهذه العناصر. فهو منها، من جهة الاشتراك في الصفة، وهو مفارق لها من جهة حجم هذه الصفة. فالمضاف غير المضاف إليه؛ لذا فالأول يتعرّف، أو يتخصص، بالثاني؛ ومن ثم فالتركيب يلبي شرط الإضافة ووظيفتها. ونلاحظ أن القاموسيين العرب وصفوا مجال التفضيل بأنه «الأمر المنكر الكبير – الأمر المتفاقم – –الأمر المنكر العظيم – ما يُستعظَم»، أو الأمر الذي «لا مثيل له» و «لا نظير له»، وأن المقصد من وراء هذا الإطلاق هو «تعظيم الأمر وتهويله». ولذلك فإنه «يقال للرجل إذا كان داهية: إنه لصِلّ أصْلالٍ، والصّل:

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

الحية التي لا تنفع منها الرّقية، وإنه لسِبْد أسْبادٍ، إذا كان داهية في اللّصوصية، وإنه لهِتر أهتارٍ، أي داهية من الدواهي، ... وفي أمالي ثعلب: يقال هو صِلّ الأصلالِ؛ أي داهية الدواهي»[٣٧]. ومن ثمة فإننا نجد لدى الشراح القاموسيين ربطًا لهذه الظاهرة بمفهوم (المبالغة). وهذا ما يقودنا إلى وقفة لبيان هذا المفهوم، واستيضاح مدى قوته التفسيرية لهذا المركب.

مفهوم (المبالغة) وكفايته التفسيرية:

مفهوم (المبالغة) ذو ثقل إبستمولوجي يمتد إلى بلاغة أرسطو وكانتيليان وغيرهما. وبدءًا من ثمانينات القرن العشرين الماضي عاد الاهتمام مجددًا بهذه الظاهرة اللغوية، وبخاصة في إطار دراسات اللسانيات النفسية. وعلى المثال وصلت إحدى الدراسات التجريبية (الإمبريقية) – بعد دراسة ثمانية أشكال من الصور البلاغية في مدونة أدبية – إلى أن (المبالغة hyperbole) تشغل الموقع الثاني في التواتر؛ ومن ثم جاءت الدعوة القائلة بأنه «في إطار هذا التواتر المُطبِق فإن المبالغة تستحق اهتمامًا أكثر مما تلقته حتى الآن»[٣٨].

وفي التراث البلاغي العربي شغل هذا المفهومُ مساحة واسعة [٣٩]. ومن هذه المساحة يهمنا هنا ذلك التفسير التداولي الذي يقدمه ابن قتيبة للمبالغة حيث يرى أن المبالغة يلجَأ إليها العرب «في كل ما أرادوا أن يعظّموه، ويستقصوا صفتَه»[٤٠]. وهذا تحديد بالغ الأهمية؛ لأنه يدرك أن الخصيصة الجوهرية في المبالغة هي (دلاليتها وتداوليتها) وليس (نحويتها)؛ بمعنى أنها ظاهرة دلالية تداولية، وليست ظاهرة نحوية؛ فهي تتجسد في أشكال لغوية متعددة: معجمية أو مركبية أو تركيبية. كذلك هي استعمال لغوي يتضمن تقييمًا إيجابيًّا أو سلبيًّا[٤١] في المشاعر والتوجهات لدى مستعمله نحو موضوعٍ ما. وهنا لا بد أن نفهم أن المقصود بـ(التعظيم) أو (استقصاء الصفة) ليس دلالة (المدح) وحدها وإنما دلالة (التحقير والذم) أيضًا. فإذا كنا قد رأينا ربط هذا النمط المركّبي الذي نحن صدده بالمبالغة فإن هذا النمط إذًا يكون من باب (التعظيم) و (استقصاء الصفة)، أو من قبيل ما أسموه أحيانًا بـ «الإفراط في الصفة»[٤٢]، أو البلوغ «بالمعنى أقصى غاياته، وأبعد نهاياته»[٤٣]، أو الدلالة على كبر المعنى على وجه التغيير عن أصول اللغة»[٤٤]؛ أي على وجه التغيير عن المعنى

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

الحرفي. على أن خصوصية المبالغة في نمط هذا المُركَّب الإضافي تتأتي من كون هذه (الصفة) يشترك فيها المضاف والمضاف إليه مع امتياز زائد في هذه الصفة نفسها عند المضاف. وهذا هو جوهر (المبالغة) فيه؛ لأنه -كما قال الزبيدي في تاج العروس- يؤدي معنى التفضيل للمضاف في الصفة القائمة عنده وعند من يملكون الصفة نفسها؛ فـ (الصفة)-بالمعنى الوجودي القائم بالموصوف- هي ميدان التفاضل بين المضاف والمضاف إليه. ومعنى (التفضيل) هذا مثّل له البحتري بصوغٍ شعري حين قال في مدح أحدهم[٤٥]:

يبينُ بالفضل أقوامٌ فيفضُلُهُم مُوحَّد بغريبِ الذكرِ منفرِدُ
توحُّدَ القمرِ السَّاري بشهرِتهِ وأنجمُ الليلِ نثرٌ حولَه نَدَدُ

فهذا الممدوح الفاضل يقاس فضلُه على فضل أقوامٍ فضلاء، ولا يقاس على غير الحائزين لهذه الصفة. وعلى هذا يمكن أن يقال في هذا المَمدوح إنه (فاضل الفضلاء). ومن ثم فإننا نصل إلى نتيجة مهمة؛ وهي أن دلالة (التفرد) التي اقترحها المجمع دلالةً لهذا المُرَكَّب لا تُظهِر دلالة (القياس) التي يعطيها هذا المركب الإضافي وما يتضمنه من خصوصية المقياس (المضاف) بالنسبة إلى المقيس عليه (المضاف إليه). فالقول بالتفرد يقضي على خصيصة الاشتراك الدلالي بين المضاف والمضاف إليه، أي على مجال المفاضلة والمقايسة بينهما. ولو كان المقصد هو فحسب إظهار (تفرد) المقيس لكان في اللجوء إلى أحد أنماط أسلوب التفضيل المعتاد عون تعبيري؛ فقيل مثلًا (فلان هو الأفضل أو الأشجع أو ... إلخ). وفي ذلك يمكن النظر إلى ما تقوله بينكا ستيتيفا Penka Stateva ؛ وهي دارسة لسانية مهمة في تحليل صيغ التفضيل superlatives؛ حيث تذهب إلى أن «كل صفة من نوع (الأعلى the highest) و (الأغنى the richest) و (الأكثر إثارة للإعجاب the most impressive) تعني ضمنًا تفرُّد الفردِ الذي أُسنِدت إليه هذا الخاصية»[٤٦]. وهذا ما يقودنا إلى ضرورة عقد مقارنة بين المركبات الإضافية من النمط الذي نحن صدده ومركبات صيغ التفضيل في العربية؛ وذلك ليتبين لنا وجه الاتفاق أو المغايرة الدلالية والتداولية بين الاستعمالين. ولنتأمل التركيبين الآتيين:

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

- فلان أشعرُ الشعراء
- فلان شاعرُ الشعراء

والسؤال هو: ما وجه الاختلاف بين المقارنة في التركيب الأول والمقارنة في التركيب الثاني؟ في التركيب الأول نحن نقارن في أفضلية القيمة الشعرية، وفي التركيب الثاني نحن نقارن بين إنجاز شاعر معين وإنجاز غيره من الشعراء. ومن ثم فالمقارنة الأولى لا تتضمن معنى الصفة المستقرة الثابتة؛ ولذلك قال النحاة إن اسم التفضيل أشبهُ بالفعل من جهة دلالته على التجدد ومن جهة الوصف به؛ فهو «نعتٌ كما أن الفعل نعتٌ»[٤٧]. أما المقارنة الثانية فهي تتضمن التأكيد على إسناد صفة ثابتة مستمرة، فكأنها (لقب) دالٌّ على الثبوت.

أما وجه الاختلاف الآخر فهو أن كثيرًا من أمثلة هذا المركب الإضافي لا يمكن صياغتها بأسلوب التفضيل: فلا يمكن مثلًا أن نصوغ اسم تفضيل من: (زيد فارس الفرسان) أو (عين الأعيان)، أو (شيخ الشيوخ)...إلخ.

وبما أن مفهوم (المقارنة) مرتبط بمفهوم (القياس)؛ فإننا نكون الآن قد وصلنا إلى أعتاب محاولتنا تقديم تفسير إدراكي لهذا المركب الإضافي الذي نعالجه.

نحو تفسير إدراكي:

في بحث بعنوان (الاستدلال القياسي بؤرة الإدراك)[٤٨] يذهب القائمون به، وهم ثلة من العلماء الاختصاصيين في مجال دراسة القياس، إلى أن القياس analogy طالما عُدَّ جزءًا مركزيًا في الذكاء والإدراك cognition البشريين. ولأنه «سَدَاة الإدراك ولُحمته»[٤٩]، ولأنه قدرة «فطرية»[٥٠]، و «وجزء لا يتجزأ من نظام الفرد اللغوي الدائم النموِّ طوال حياته»[٥١]؛ فهو العنصر المهم في عناصر القدرات الإدراكية المتنوعة مثل التمكن من التذكر، والتكيف، والتعلم، والمنطق، والإبداع، وحل المشكلات، واتخاذ القرار، والحجاج، والإدراك الحسي، والتعميم، والتنبؤ، ووضع المفاهيم...إلخ. ولقد أشار دارسو القياس إلى نقطة مهمة وهي أن «الحجج القياسية قد تكون قوية وقد تكون ضعيفة؛ وذلك حسب وثاقة صلة الخصائص المذكورة في المقدمات بالخصيصة المنبثقة في النتيجة»[٥٢]. وبالاعتماد على هذه النقطة الأخيرة

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

نقول إن الحجاج على أمرٍ ما يقوَى بقوة حججه، ويضعف بضعف حججه. فإذا أردنا مثلًا أن نحاجج لصالح إثبات (شجاعة زيد) يمكننا إعطاء أحد القياسين الآتيين:

القياس الأول	القياس الثاني
كل الفرسان شجعان	كل الفرسان شجعان
زيد شجاع	زيدٌ لا مثيل له في الشجاعة
إذًا زيد فارس من الفرسان	إذًا زيد أشجع من الفرسان

ولا شك أن القياس الثاني أقوى في إثبات شجاعة زيد من القياس الأول. وما ذلك إلا لأن الحجاج الأول هدفُه تأسيسُ علاقة (انضواء في الصفة أو في الصنف)؛ أي انضواء زيد تحت مقولة (الفرسان). فهو إذن ينتمي إلى القياس التصنيفي. أما القياس الثاني فهدفه تأسيس علاقة (مقارنة في الصفة)، والمقارنة لا تقوم إلا عند وجود تفاوت في درجات امتلاك الصفة. فهو من ثم قياسٌ تناسبيّ proportional analogy ينظر إلى التطابقات بين الكائنات الواقعة داخل المجال نفسه. وهذا ما يجعل أحد الأنماط الرئيسة في المركَّبات الإضافية التي نعالجها تنطوي ضمنًا على أحكام قِيمية، وليس مجرد أحكام تفضيلية. ويوصلنا هذا التحليل إلى أهمية الفكرتين اللتين طرحهما تراثنا اللغوي في تحليل هذا النمط الرئيس:

- فكرة (نفي المثيل) عن المضاف؛ وهو نفيٌ يطالُ المثيل القائمَ في الفئة المعروفة بطرازيتها لتمثيل المقولة المتضمنة في المضاف إليه،
- وفكرة (المبالغة) في إثبات الصفة لهذا المضاف؛ وذلك بالنظر إلى ما أنتجه التركيب من تعديل لدى المتلقي يخص الممثّلَ الطرازي prototypical exemplar[٥٣] لهذه المقولة.

فبدون هاتين الفكرتين لا يمكن نسبة المركب إلى دلالة حكم القيمة.

وهاتان الفكرتان معًا تقتضيان منا أن نستدعي طرح السؤال الآتي: هل يتسق وجود هذا المركَّب في اللغة وعملَ الذهن البشري في إجراء عملية القياس التي ذكرناها؟ ولقد أشرنا منذ قليل إلى تعبيرات إدراكية تتحلَّق حول فكرة (الطرازية

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

prototypicality). والمقصود من ذلك هنا هو نظرية الطراز الإدراكية Prototype Theory التي اقترحتها وطورتها إلينور روش E.Rosch منذ سبعينيات القرن الميلادي الماضي. ولقد عرَّفت روش (الطُّرُز) بأنه «التمثيلات الإدراكية المجردة للمفاهيم». وهذه التمثيلات للمفاهيم تتجه إلى تجميع المفاهيم المتماثلة أو المتقاربة في فئات دلالية، أو مقولات تصنيفية categories. وتتسم هذه المفاهيم التصنيفية بأن الواحد منها يضم عناصر غير متكافئة الدرجة؛ فمنها ما هو أقرب لتمثيل خصائص المفهوم، ومنها ما يبتعد نسبيًّا عن التمثيل الدقيق لهذه الخصائص. وبسبب من طبيعة المرونة، وقابلية إعادة التشكل العصبوني في الدماغ البشري وظيفيًّا وبنيويًّا functional and structural placticity[٥٤] فإنه يحدث إدخالٌ عناصر جديدة في الفئة المفهومية، وكذلك يحدث تعديلٌ في مراتب العناصر بالنسبة إلى نموذجية التمثيل للمفهوم المعين، أو يحدث أخيرًا إخراج عنصر من فئة هذا المفهوم وانتقاله إلى فئة مفهومية أخرى. وما ذلك إلا لكون طبيعة الفئات التصنيفية في أدمغتنا «ذات طبيعة ديناميكية، وتمثيلاتها تتكيف مع البيئات المتغيرة»[٥٥]. ومن ثم فنحن بوصفنا بشرًا في حال تشغيلٍ دائم لآلية دماغية أساسية تسمح لنا بإدراك العالم وتنظيمه والتكيف معه.

وبتطبيق هذه النظرية على المركبات الإضافية التي نعالجها نقول إن (المضاف إليه (فيها هو ما يستحث الذاكرة لاستدعاء الارتباطات النموذجية الخاصة بالصفة المعينة التي يمتلكها المفهوم الذي يمثله هذا المضاف إليه. ومن ثم فعند إضافة المفرد وتبئيره كرأسٍ لهذا المركب الإضافي يقوم الذهن بإجراء قياسٍ تفاضلي بين المضاف والمضاف إليه؛ أي بين ما يعرفه نموذجيًّا من قبلُ عن خصائص الصنف المقولي التي يمثلها المضافُ إليه، وهذا الوافد الجديد (المضاف) الذي يفوق في تمثيله لهذه الخصائص تمثيلَ هذه الصنف. فـ (المضاف) هو المفهوم الجديد في هذا النمط الإضافي، و (المضاف إليه) هو المفهوم الطرازيّ المعلوم سَلَفًا لدي الموجَّه إليه القول. وبصياغة جشطالتية أخرى نقول إن المتلقي لهذا المركب الإضافي يفهم (المضاف) على أرضية (المضاف إليه). ومن ثم فالمضاف إليه يعمل بوصفه الإطار المرجعي frame of reference الذي تقاس عليه صفة المضاف. ومن خلال هذه (القراءة) الذهنية يكتشف المتلقي قصد المرسل من تبئير (المضاف) وتكريس

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

أَمَامِيَّته – بالمفهوم الجشطالتي للأمامية foregrounding– في الرتبة المُركبية بما يؤسس لأماميته في الصفة الجامعة بينه وبين المضاف إليه. وكما تقول شازيا أكبر جيلزاي Shazia Akbar Ghilzai في دراستها المقارنة بين الإنجليزية واليونانية عن «أثر العوامل الإدراكية والنفسية في التنوع التركيبي للإضافة» فإنه «عندما يُدخِل المتكلمُ المفاهيمَ الجديدة إلى المخاطب، فإنه [أي المخاطب] يربط المعلوماتِ الجديدة بالمعلومات السابقة»[٥٦]. وبناء على ذلك فإن تفكيك الذهن لنمط المركب الإضافي الذي نعالجه هنا هو أنه يقوم بعملية تعديل لمُمَثِّل النموذج الطرازي الذي يعرِفُه من قبل والمتضمَّن في المقولة التي يشير إليها (المضاف إليه). وهذا التعديل يجري لصالح تصعيد (أو نقل) نسبة التمثيل النموذجي لهذه الخصائص إلى (المضاف) ليكون هو (الممثل الطرازي الجديد للمقولة). وكما يوضح الرسمُ الشارحُ التالي فإن وضع المفهوم بين معقوفين [ ] يشير إلى أنه مفهوم متحصَّل من قبل في الذاكرة، بخصائصه النموذجية التي تدركها الذاكرة الثقافية الجمعية. ومع إدراك المتلقي أن المرسِل يريد منه أن يحصّل حَملًا بخصوص مفهوم (المضاف)، بدليل جعلِ هذا المضاف رأسَ المركبِ نحويًّا؛ ومن ثم جعله مركزَ الهيمنة الدلالية على الصفة المشتركة مع المضاف إليه، فإن هذا المتلقي يبدأ – خلال وقت المعالجة[٥٧] processing time – في عملية نقل الخصائص النموذجية التي يمتلكها المضاف إليه إلى هذا الرأس (المضاف). والمثال المعطى في الرسم الآتي هو مركب (فارس الفرسان):

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

بيد أن أهم سؤال جاء وقتُ طرحِه الآن في هذه المقاربة هو: هل كل أنماط هذا المركب الإضافي ذاتُ دلالة واحدة في إقامة هذا التراتب الطرازي؟ وللإجابة عن هذا السؤال نقول إن ما تحصّل لدى الباحث من تأمل استقصائه لأمثلة هذا المركب هو تقسيم أمثلته من وجهة الدلالة الإدراكية الطرازية إلى الخمسة الأنماط الآتية:

- **نمط التراتب الطرازيّ القِيميّ المباشر**:

وفي هذا النمط يتم تصعيدٌ مباشر لأحد أفراد الفئة ليكون هو الممثلَ الطرازي النموذجي prototypical exemplar لهذه الفئة. فنحن مع كل مركب من مركبات هذا النمط نكون – بلغة المنطق – أمام زمرة set ماصدَقُها عددٌ من العناصر المشترِكة في خاصيةٍ جامعة لهذه الزمرة. وحيث إن إدراك التشابه أو الاختلاف يقوم على قاعدة معالجة التطابق في السمة a feature matching process فإن ذهن المتلقي لهذا المركب الإضافي يدرك أن المرسِل يقصد إلى إعطاء رأس المركب قيمةً عليا في امتلاك السمة تزيد عما لدى الجماعة الأصلية الممثّلة لتلك السمة. وفي هذه الحالة يمكننا أن نسمي هذا النوع من الوصف بهذا النمط من المركب: والوصف الأقصى maximative. فعندما نقول مثلًا (فارس الفرسان) فـ (فارس) = (أحد) هؤلاء (الأحَدِين) الذين هم (الفرسان). وإذا رمزنا لمجموعة (الفرسان) بالرمز (ف)، ولعناصرها بالرموز (ف١، ف٢، ف٣...) فإننا نكون إزاء الترميز الآتي: ف= {ف١، ف٢، ف٣...}. ولكن لأن طبيعة التفكير البشري مصمَّمة على الإدراك التدرجي وليس المعياري graded rather than criterial[٥٨]، ولأن (الطرُز) هي الأساس للتدرجية prototypes as a basis for gradability[٥٩] التي تَظهر في التركيبات المقارنة والتفضيلية حيث تدل على خاصية مشتركة بدرجات متفاوتة بين مجموعة عناصر، فإن أحد هذه العناصر يفوق – في هذه الخاصية المشتركة– غيرَه من العناصر الأخرى. لقد أصبح هو الممثل الطرازي لتلك الخاصية (= الفروسية هنا).

ولو أخذنا مثالاً آخر هو المركب (سر الأسرار): فإن مفهوم (الأسرار) يعني

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

الأمور التي يُتكتَّم عليها، ويمتنع البوحُ بها. فإذا وجد منها ما يكون التكتمُ عليه أشدَّ وألزم؛ فيصبح هو الطراز النموذجي الذي يمثل مفهوم الأسرار. فالعناصر المضاف إذًا ذو هوية معتمِدة dependent entity من جهةِ الخاصية المشتركة، وذو هوية مائزة distinguishing من جهةِ حجم امتلاك الخاصية أو قَدْرها أو درجتِها أو وظيفتها.

والأمثلة المركبة لهذا النمط هي مثل: سر الأسرار – فارس الفُرسان – فَتى الفِتيانِ- شاعر الشعراء- صنْديد الصَّناديدِ- جميلة الجميلات- سعيد السعداء -أميرة الأميرات – عين الأعيانِ – أستاذ الأساتذة – فتح الفتوحِ – نوبة النُّوبِ – كأس الكؤوس.

- **نمط التراتب الطرازيّ القِيميّ المجازي:**

وفي هذا النمط يتم التصعيد الطرازي عن طريق قياس مجازي تشبيهي حيث يستنتج الذهن طرازية (المشبه) بالنسبة إلى فئته من طرازية (المشبه به) بالنسبة إلى فئته. فعندما يقال مثلًا: (هذا الملاكم هو أسد الأسود) فإن الذهن يستنتج الطرازية النموذجية لهذا الملاكم بالنسبة إلى الملاكمين عن طريق إجراء قياس على طرازية (أقوى أسدٍ تمثيلًا لمفهوم (الأسدية) بين الأسود الأخرى. وعادة ما تكون الصفة/ البؤرة في الخصائص الطرازية للمضاف إليه هي الصفة التي يتم نقلها وإسنادها إلى (المشبه) المراد نعته بهذا المركب الإضافي. فصفة (الشجاعة) هي الصفة البؤرة في الأسود، وهي التي تنقل وتُسنَد إلى (المشبه)؛ فكأن (زيد أسد الأسود) = (زيد أشجع الشجعان).

والأمثلة المركبة لهذا النمط هي مثل: قمر الأقمار – شمس الشموس- بدر البدور – نجم النجومِ أو نجمة النجوم- بَحر البُحورِ- زهرة الزهور – أَسد الأُسودِ- لَيث اللُيوثِ – سَعد السُّعودِ (بالاستعمال التشبيهي وليس المصطلحيّ الفلكي)- نَحس النُّحوسِ (بالاستعمال التشبيهي وليس المصطلحيّ الفلكي).

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

- **نمط التراتب الطرازيّ الوظيفي:**

وفي هذا النمط يتم[٦٠] التصعيد الطرازي ليس بقصد تفضيل أحد عناصر الفئة مبالغة أو استعظامًا على حد تعبير القدماء، وإنما للدلالة على وضعية وظيفية، أو رتبة سياسية، أو مهنية، أعلى في التدرج الهرمي من الوظائف الأخرى الواقعة في مجالها. ولذلك ما يصح هو أن نُسَمّي الوصف بهذا النمط الفرعي من المركب الإضافي بـ (الوصف السُّلَّميّ scalar). فعندما نقول مثلًا إن (القاضي عبد الجبار كان قاضي القضاة) فهذا مجرد إخبار تقريري لا يحمل أي حكم قيمة. وإنما يحدد الموقع الإداري للموصوف بهذا الوصف؛ فهو يشغل درجة تعلو غيره من القضاة. وترد في كتاب (مرآة الزمان في تاريخ الأعيان) العبارة الآتية (فبعث الخليفةُ شيخَ الشيوخِ عبدَ الرحيم يأمر السلطانَ بالرحيل). ومن الواضح أن المقصد هنا هو تحديد وظيفة هذا الشيخ؛ فلا تفضيل هنا مدحًا أو ذمًّا، وإنما إيراد معلومة عن الرتبة الطرازية التصنيفية. ومع ذلك يلاحظ أن هذه المجموعة منها ما قد يُستخدّم أحيانًا استخدامًا مجازيًّا؛ فتدخل في هذه الحالة في النمط الثاني الذي ذكرناه من قبل. ففي المركب (أمير الأمراء) مثلًا – حين يراد به الدلالة غير الوظيفية التي نعرفها في النظام الإداري العباسي– قد يشبّه به شخصٌ شخصًا آخر على سبيل المدح فيقول له مثلًا (أنت أمير الأمراء في أدبك وأخلاقك).

والأمثلة المركبية لهذا النمط هي مثل: قاضي القضاة – شيخ المشايخ – إمام الأئمة – أمير الأمراء.

- **نمط التراتب الطرازيّ الميتافيزيقي:**

وفي هذا النمط يتم التصعيد الطرازي ليس بقصد المقارنة التفضيلية، وإنما لإثبات المغايرة والانفراد بخاصية معينة. فالمركب (ملك الملوك) مثلًا – عندما يستخدم في سياقات الخطاب الديني – توصف به الذات الإلهية للدلالة على امتلاك الله تعالى

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

السلطة المطلقة التي تعلو كل سلطة. وهو في ذلك مثل المركبين (رب الأرباب) و (إله الآلهة). وهذان المركبان في العربية يماثلان المركبين الإضافيين اللذين نجدهما مثلًا في اللغة العبرية: (נסיך הנסיכים) بمعنى (أمير الأمراء)، و אלוהי האלים بمعنى (إله الآلهة)، وهما مركبان يُطلقان على الله تعالى؛ ويُترجمان إلى الإنجليزية بـ(Prince of Princes) و (Lord of lords). وهذا الوجود المتشابه في اللغات يشير إلى أن هذا النوع من المركب الإضافي الذي يضاف فيه المفرد إلى جمعه إنما هو ظاهرة قائمة في اللغات الإنسانية استجابةً لمطلب أداء وظيفة دلالية بالنسبة إلى الإدراك الإنساني.

والأمثلة المركبية لهذا النمط هي مثل: إله الآلهة – روح الأرواح – نور الأنوار– قدس الأقداس – جنة الجنات

- **نمط التراتب الطرازيّ المصطلحي**

وفي هذا النمط يتم التصعيد الطرازي أيضًا ليس بقصد المقارنة التفضيلية، وإنما لإثبات عموم المضاف لكل ما ينضوي تحت اسم (المضاف إليه). فالطرازية هنا هي طرازية (العموم). ويمكن القول هنا إن اتجاه المركب الإضافي لا يحيل إلى حكم قيمة داخل ذهن المرسل، وإنما إلى عملية ذهنية تصنيفية لعلاقات مفهومية بين أفراد مجموعة مصطلحية معينة. فمثلًا المركب (جنس الأجناس) يطلق على (جنس) هو شاملٌ لجميع الأجناس المنضوية تحته (فمثلًا: جنس (الجوهر)، يعلو جنس (الجسم)، الذي يعلو جنس (السائل)، الذي يعلو جنس (الماء)): فـ(الجوهر) هو جنس أجناس (الجسم) و (السائل) و (الماء).

والأمثلة المركبية لهذا النمط هي مثل: جنس الأجناس – نوع الأنواع – حقيقة الحقائق، سعد السعود (= منزِل فلكي)(٦١).

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

الخلاصة:

في محصلة هذه المداخلة يمكن إيجاز ما توصلنا إليه في النقاط الآتية:

١- إثبات أن ظاهرة إضافة المفرد إلى جمعه ظاهرة شائعة عبر تاريخ استعمالات اللغة العربية شعرًا ونثرًا، وفي عناوين الكتب وفي المصطلحات.

٢- إثبات أن علماء التراث، وابن عاشور في العصر الحديث، قد التفتوا إلى مركبات الإضافة في هذه الظاهرة وقدموا مفهوم (المبالغة) تفسيرًا لها.

٣- تقديم معالجة جديدة للظاهرة باستثمار معطيات نظرية النموذج الطرازي في الإدراكيات.

٤- الخروج بتقسيم دلالي/ تداولي غير مسبوق لأنواع مركبات الظاهرة؛ حيث بلغت أنماطها خمسة أنماط هي:

أ. نمط التراتب الطرازي القِيميّ المباشر

ب. نمط التراتب الطرازيّ القِيمي المجازي

ج. نمط التراتب الطرازيّ الميتافيزيقي

د. نمط التراتب الطرازيّ الوظيفي

ه. نمط التراتب الطرازيّ المصطلحي

وعلى ضوء هذه النتائج فقد برهنت المداخلة على قصورٍ واضح في المعالجة المجمعية للظاهرة من ثلاث جهات: جهة النظر إليها في سياق الاستعمال العربي، وجهة النظر إلى معالجة علماء التراث لها، وجهة استثمار النظر اللساني الحديث في تفسيرها.

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

الهوامش

١. أتقدم بكل الشكر والتقدير لأستاذنا العالم اللساني الكبير الدكتور سعد مصلوح على تجشمه قراءة هذه المقالة، وعلى توجيهاته باستدراكاته القيمة. وكذلك أتوجه بالعرفان والتقدير لأخي الدكتور حافظ إسماعيل علوي، وهو المبرز في جهوده اللسانية المرموقة، وقد كان له تسديداته الموجهة والمصححة. وبطبيعة الحال فإنني المسؤول الوحيد عن أي أخطاء أو قصور في المقالة.

٢. في كل أمثلة الأبيات الشعرية الآتية اعتمدنا على ورودها إما في: موسوعة الشعر العربي. الإصدار الأول ٢٠٠٩م – مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، أو في: الموسوعة الشعرية. المجمع الثقافي (أبو ظبي) (١٩٩٧–٢٠٠٣م). وفي حال الاعتماد على مصدر آخر فسيُنصّ على ذلك.

٣. ديوان مهلهل بن ربيعة. ص ١٠١. شرح وتقديم طلال حرب. الدار العالمية (ب.ب)

٤. في الضبط النحوي لنص هذه القصيدة ما يحتاج إلى إعادة نظر وتدقيق.

٥. عبد الرحمن الرقوقي: شرح ديوان المتنبي. ص٧٠٨. مؤسسة هنداوي، ٢٠١٤م. ويقول العكبري (ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري المسمى بالتبيان في شرح الديوان. تحقيق مصطفى السقا +خ– دار المعرفة– بيروت)٢/ ٢١١: «يقول: أنت بحر البحور وملك ملوك الأرض، ولا أورّي أي أستر قولي، ولا أستثني من الملوك ملكًا، ويُروى: بدر البدور».

٦. وهنا يمكن القول إن هذه المجاورة قد تعدّ ظاهرة أسلوبية محايثة لهذا النمط من الإضافة. وتستحق هذه المسألة دراسة مستقلة، وبخاصة ما يتعلق منها بما أسميه الإضافة المحوّلة كتلك التي نجدها عند ابن الرومي؛ في البيت الآتي:

يا شمسَ زُهر الشموس يا قمر الـ أقمار حسناً يا زهرة الزُّهَرِ

حيث إننا إذا أدركنا أن التركيب محوَّل عن (ياشمسَ الشموسِ الزهُّر) فإننا نكون إزاء ثلاثة مُركَّبات إضافية في البيت الواحد. وتلك الملاحظة تتسق

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

وقولَ ابن مالك في تحليل المركب الإضافي (كِرام الناس) في البيت:

إنا مُحَيُّوكِ يا سلمى فحيّينا وإن سقيتِ كرامَ الناسِ فادْعينا

عندما قال إن الأصل هو «وإن سقيتِ الناسَ الكرامَ، ثم قدم الصفة وجعلها نوعًا مضافًا إلى الجنس». انظر: ابن مالك: شرح التسهيل. ج٣/ ٢٣١. تحقيق د. عبد الرحمن السيد & د. محمد بدوي المختون. هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٩م

٧. ابن قتيبة: كتاب الأنواء في مواسم العرب. حيدرآباد، ١٩٥٦م، ص٧٨-٧٩

٨. السابق نفسه، ص٧٩

٩. ابن حمدون: التذكرة الحمدونية. تحقيق إحسان عباس، وبكر عباس. دار صادر-بيروت-ط١-١٩٩٦م.

١٠. طاهر سليمان حمودة: جلال الدين السيوطي: عصره وحياته وآثاره وجهوده في الدرس اللغوي. المكتب الإسلامي-بيروت-١٩٨٩م، ص٦٢ ومواضع أخرى. ويلاحظ عدم دقة سنة الوقف بالنسبة إلى سنة وفاة صلاح الدين.

١١. ومن ثم هناك موقع إسلامي صوفي على الشابكة باسم (موقع شمس الشموس).

١٢. انظر: أبو العباس أحمد الهيتمي: الإجازة البالغة. تحقيق حسين حسن كريم. ص٣١٨ (هامش رقم ٩)، دار الكتب العلمية-بيروت-٢٠٢٠م

١٣. عبد القادر العيدروس: النور السافر في أخبار القرن العاشر. تحقيق أحمد حالو وآخرين. دار صادر-بيروت-ط١، ٢٠٠١م، ص١٢٤

١٤. أحمد بن علي بن يوسف البوني: شمس المعارف الكبرى. ص١٦٣. مكتبة جمهورية مصر-القاهرة. (ب.ت.)

١٥. انظر: حلمي النمنم: الأزهر: الشيخ والمشيخة. مكتبة مدبولي-٢٠١٢م

١٦. محمد حسنين مخلوف العدوي المالكي: الحاشية الثانية على الجواهر المنتظمات في عقود المقولات. ص٣. دار الكتب العلمية-بيروت-٢٠١٦م

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

١٧. ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم. ج٦/ ٣٢١. تحقيق محمد عبد القادر عطا & مصطفى عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية-بيروت

١٨. أبو زيد القرشي: جمهرة أشعار العرب. ص٦٨. تحقيق علي محمد البجاوي. نهضة مصر-١٩٨١م.

١٩. محيي الدين بن عربي: إنشاء الدوائر. ص١٦. مكتبة الثقافة الدينية-القاهرة ١٩٩٨ وانظر حول هذا المصطلح عند ابن عربي: محمد الصالح الضاوي: أولى الحقائق الوجودية الكبرى (أين وجد هذا العالم؟ وكيف؟ ومم؟): الفصل الثاني وعنوانه (حقيقة الحقائق). دار الكتب العلمية-بيروت- ٢٠١٦م

٢٠. د. مهدي فضل الله: شرح الشمسية في القواعد المنطقية. ص٦٣. المركز الثقافي العربي-بيروت.

٢١. السابق نفسه، ص ٢١٠

٢٢. راجع: د. محمد عصام شبارو: قاضي القضاة في الإسلام. دار النهضة العربية. بيروت، ط٢، ١٩٩٢م.

٢٣. ابن خلكان: وفيات الأعيان. ٥/ ٢٠٧. تحقيق د. يوسف علي طويل مريم قاسم طويل. دار الكتب العلمية-بيروت.

٢٤. هاشم يحي الملاخ: طبيعة الدولة الإسلامية: دراسات تاريخية في المفهوم والنظم والإدارة. ص١٦٢. دار الكتب العلمية-بيروت-٢٠٠٩م. وانظر: حسام الدين السامرائي: المؤسسات الإدارية في الدولة العباسية، (فترة أمراء الأمراء) ٦٨-٨٠-دار الفكر العربي-١٤٠٣هـ.

٢٥. ابن الخطيب: الفرقان في تدوين القرآن. ص٢٣٥. دار الكتب العلمية، ١٩٩٣

٢٦. يراجع تفسير الآية رقم (٤٢) من سورة فاطر في: محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير. الدار التونسية للنشر مجلد ٢٢/ ٣٣٢. وقد أضفتُ هذه الزيادة بين معقوفين لأن (إحدى) في (إحدى الأمم) مضافة ومع ذلك لا تؤدي دلالة الاستعظام؛ لإن إضافتها تلك لغير اسم من لفظها.

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

٢٧. السيوطي: المزهر، ٢/ ٢٤٦-٢٤٩ (سبق ذكره).

٢٨. للتفرقة التي أصبحت لازمة بين (المعجم و (القاموس) انظر: د. محيي الدين محسب: نقل المصطلح اللساني. دار الهدى-القاهرة-٢٠٠١م

٢٩. ابن منظور: لسان العرب (أحد). ط. دار المعارف-١٩٧٩م

٣٠. الفيروزآبادي: القاموس المحيط (أحد). مؤسسة الرسالة-ط٢-١٩٨٧م.

٣١. الزبيدي: تاج العروس ج٧/ (أحد)، تحقيق عبد السلام هارون، الكويت (وزارة الإرشاد والأنباء)، طبعة ثانية مصورة، ١٩٩٤م

٣٢. ابن مالك: تسهيل الفوائد وتكميل المقصد. ص١١٨. تحقيق محمد كامل بركات. دار الكتاب العربي-١٩٦٧م

٣٣. يقول بعضهم إن (الدهارير) جمع لا واحد له من لفظه، ولكن ان منظور يقول في لسان العرب «وواحد الدهارير دهر على غير قياس.. فكأنها جمع دهرور أو دهرار».

٣٤. ابن منظور: لسان العرب (دهر)

٣٥. ابن عباد: المحيط في اللغة. تحقيق محمد حسن آل ياسين. (أحد) ٣/ ١٨٣-عالم الكتب-بيروت-ط١-١٩٩٤م. وهذا التفسير لمركب (أحد الأحدين) يتسق والرواية الآتية عن الوليد بن عبد الملك: «وصلّى يومًا الغداةَ فقرأ السُّورة التي تُذكر فيها الحاقّة فقال: يا ليتُها كانت القاضِيَة، [أي قرأ بضمة على تاء ليتها] فبلغَتْ عمرَ بنَ عبدِ العزيز فقال: أمَا إنّه إنْ كان قالها إنّه لَأَحَدُ الأَحَدِين»؛ أي داهية من الدواهي. انظر: الجاحظ: البيان والتبيين. تحقيق عبد السلام هارون، ٢/ ٢٠٥-الخانجي، القاهرة-ط٧-١٩٩٨م

٣٦. ابن مالك: تسهيل الفوائد. سبق ذكره، ص١٥٦

٣٧. السيوطي: المزهر في علوم اللغة. ٢/ ٢٤٧- تحقيق محمد أحمد جاد المولى +خ منشورات المكتبة العصرية – بيروت ١٩٨٦

٣٨. Kreuz, R.J. et al. (1996). “Figurative Language Occurrence

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

and Co-occurrence in Contemporary Literature", p. 91, in: R.J. Kreuz and M.S. MacNealy (eds.) Empirical Approaches to Literature and Aesthetics. Norwood, NJ: Ablex Publishing Corporation: 83-97.

٣٩. انظر: عالي سرحان القرشي: المبالغة في البلاغة العربية: تاريخها وصورها. (رسالة ماجستير مخطوطة) في كلية اللغة العربية –جامعة أم القرى– ١٩٨٢م. وهي منشورة على الشبكة.

٤٠. ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن. ص ١٦٨. شرحه ونشره السيد أحمد صقر – ط٢– دار التراث– القاهرة. ١٩٧٣

٤١. الأمثلة التي سقناها حتى الآن للمركب الذي نحن صدده تصب في التقييم الإيجابي، أما أمثلة التقييم السلبي فكقول أحدهم في وصف آخر على أحد مواقع الشبكة إنه «جاهلُ الجهلاء وبائسُ البؤساء وتعيسُ التعساء» (انظر: https://www.babnet.net/cadredetail-124753.asp)، ويمكن أن يعدَّ من الدلالة السلبية قول الشاعر ابن شلبون (ت ٦٣٩هـ):

خطبُ الخطوب دها العلاءَ مُصابُهُ فَارْبَأ بدمعكَ أن يقلَّ مَصابُهُ

٤٢. عالي سرحان القرشي، سبق ذكره، ص١٥

٤٣. هذا هو مفهوم (المبالغة) عند أبي هلال العسكري؛ انظر: أبو هلال العسكري: الصناعتين. ص٣٦٥، تحقيق محمد علي البجاوي & محمد أبو الفضل إبراهيم. ط١، ١٩٥٢، دار إحياء الكتب العربية (اعيسى البابي الحلبي وشركاه)

٤٤. (٤٤) هذا هو مفهوم (المبالغة) عند الرماني؛ انظر: أبو عيسى الرماني: النكت في إعجاز القرآن. ص١٠٤، ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن. تحقيق محمد خلف الله أحمد & محمد زغلول سلام. دار المعارف بمصر، ط٣، ١٩٧٦م.

٤٥. ديوان البحتري. تحقيق حسن كامل الصيرفي. ص٦٤٦–٦٤٧. دار المعارف بمصر – ط٣، المجلد الثاني

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

٤٦. Penka Stateva (2004): Presuppositions in Superlatives. PDF at: www. Researchgate.net

٤٧. المبرد: المقتضب. تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة ٣/ ٣١١، ط٣، القاهرة ١٩٩٤م

٤٨. Helmar Gust et al (2008): Analogical Reasoning: A Core of Cognition. PDF at: www.researchgate.net

٤٩. هذا هو عنوان بحث رايمو أنتيللا:

Raimo Anttila (2017): Analogy: The Warp and Woof of Cognition" in: Brain D. Joseph & Richard D. Janda (eds.): The ,440-p. 425 .Handbook of Historical Linguistics. Blackwell Publishing Ltd

٥٠. Ibid.

٥١. Jim Blevins and Juliette Blevins: Introduction: Analogy in Grammar. In: James P. Blevins & Juliette Blevins (eds.), Analogy in grammar. Form and acquisition. Oxford: Oxford :University Press, 2009. At

/10/http://julietteblevins.ws.gc.cuny.edu/files/2016 .Blevins2009a-AnalogyinGrammar.pdf

٥٢. Paul Thagard & Cameron Shelley (2001): "Emotional Analogies and Analogical Inference". In: D. Gentner & K. H. Holyoak & B. K. Kokinov (Eds.), The analogical .(362-mind: Perspectives from cognitive science (pp. 335 .Cambridge, MA: MIT Press

٥٣. سنعود في موضع قادم لإعطاء نبذة عن النظرية الطرازية في اللسانيات الإدراكية.

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

٥٤. انظر:

Bruno Will et al (2008):The Concept of Brain Plasticity—Paillard's Systemic Analysis and Emphasis on Structure and Function. In: Behavioural Brain Research, (2008), doi:10.1016/j.bbr.2007.11.008. pdf at: www.neurotech.org.nz › publications

٥٥. Lea Frermann (2017): Bayesian Models of Category Acquisition and Meaning Development. University of Edinburgh. PhD, PDF at:

www.frermann.de › dataFiles › phd_thesis_leafrermann

٥٦. Shazia Akbar Ghilzai (2017):The Influence of Cognitive and Psychological Factors on the Syntactic variation of Genitive Constructions: A comparison of English & Greek Language. P. 112, In: Perspectives in Language, Linguistics and Media 2 148-(2017) 111

٥٧. تتفاوت مدة وقت المعالجة بحسب بساطة المركب أو تعقيده، وجِدَّته أو قِدَمه. فمثلًا لو ولَّدنا مركبًا مثل: زيد هو ممثلُ الممثلين) سيستغرق فهمُ المركب وقتًا أطول بسبب الاشتراك الدلالي في كلمة (ممثل): هل تعني تفوقه عليهم في قدرة الفن التمثيلي، أم تعني النيابة عنهم في أمرٍ ما. وهنا يعوَّل على السياق.

٥٨. Vyvyan Evans, Benjamin K. Bergen and Jörg Zinken (eds.) (2007): The Cognitive Linguistics Reader. p. 126. Equinox Publishing Ltd.

٥٩. Elena Tribushinina (2008): Cognitive Reference Points Semantics Beyond the Prototypes in Adjectives of Space and Colour. P. 78. Published by LOT, (Doctoral Thesis at Leiden University), PDF at: www. LOTpublications.nl

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

٦٠. يُغلّط بعضُ المحدَثين استعمالَ الفعل (تم) قبل مصدرٍ آخر. ولقد رأيتُ أبا الأسود الدؤلي يقول:

أَلا أَبلِغ أَبا بَحرٍ خَليلي فَنِعمَ أَخو المَوَدَّةِ وَالخَليلُ

بِأن قَد تَمَّ بَعدُكُمُ بِنائي وَضَنَّ عَليَّ بِالمَعروفِ فيلُ

٦١. دلالته التراتبية تبدو واضحة عندما نعرف مثلًا حديث الفلكيين عن (السعود الأربعة)، وعن أن (المشتري) هو السعد الأكبر، وأن (الزهرة) تسمى السعد الأصغر...إلخ.

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً